سجون المغرب الاقصى

يزور القطر المصري كل شتاء كثيرون من اشراف الانكليز وفي جملتهم ارل ميث وزوجتهُ كونتس ميث . والاثنان من كرام الانام الذين يتذرَّعون بمقامهم وثروتهم لنفع الناس . والظاهر انهما يزوران بلاد مراكش او المغرب الاقصى كما يزوران هذا القطر فقد كتبت كونتس ميث مقالةً في الجزء الاخير من مجلَّة القرن التاسع عشر الانكليزية وصفت فيها فظائع السجون في تلك البلاد وصفاً نقشعرُّ منهُ الابدان لا بقصد الوقيعة ولا لمجرَّد العلم باحوال الناس في تلك البلاد بل انهاضاً لهمم الكرام في سائر البلدان حتى يؤلفوا لجنة من كل الامم الاوربية تسعى لدى سلطان مراكش ليصلح سجون بلادهِ ويمنع الجور عن اهلها . وقد تنجح في تأليف هذه اللجنة وقد لا تنجح وقد تفلح اللجنة في ما تسعى اليهِ وقد لا تفلح ولكن في القطر المصري وبين قرَّاء المقتطف اناساً كثيرين يحسبون كل بلاد اسلامية وطناً لهم ويدَّعون الغيرة الوطنية عليها . وعندنا انهم اذا ألَّفوا لجنة تسعى لدى سلطان مراكش في رفع الحيف عن اخوانهم كان سعيها مشكوراً وفعلها مأجوراً وتدفع عن تلك البلاد غائلة "التداخل" الاجنبي الذي اذا القى عصاهُ فيها قبل ان تنهض من سباتها ذهب باستقلال اهاليها من سلطانهم الى آخر سوقتهم . واذ قد تمهَّد ذلك نترجم جانباً مما اوردتهُ كونتس ميث في مقالتها قالت :

ان كلمة "السجون" في بلاد مراكش لا يراد بها المجرم لان المسجون قد يكون بريئاً من كل جرم مسالماً للناس اجمع والمجرم قد يكون القاضي الذي حكم عليهِ بالسجن . وليس في مراكش قانون للجنايات فيحكم القضاة حسب اهوائهم يحكمون على الواحد مثلاً بالسجن لان لهُ مالاً يراد ابتزازهُ منهُ واذا ارتكب جناية واراد ان يخلص من عواقبها فما عليهِ الاَّ ان يتخلى عن بعض ما يتملكهُ فتقلّ جريمتهُ او يبرَّأ ويؤخذ بها غيرهُ حتى اذا قيد الى السجن بقي فيهِ الى ما شاء الدينار او حُسب من المنسيين فيترك فيهِ الى ان ينجيهُ الموت منهُ

وقد يذنب رجل فيسجن واحد من اقاربهِ بدلاً منهُ ابوهُ او امهُ او اخوهُ او عمهُ وقد يُنقَل السجين في هذا البلد الى سجن آخر وبلد بعيد يقوم فيهِ مقام سجين آخر اشترى براءتهُ من القاضي بالمال

اخبرني احد الثقات وقد تفقد كثيراً من السجون انهُ شاهد مرةً عشرين سجيناً في حالة يرثى لها من المرض وسأل عن جرائمهم واسباب سجنهم فلم يجد مَن ينبئهُ عن ذلك وقال لهُ والي البلد ان والياً آخر ارسلهم اليهِ ليسجنوا ولم يشر الى جرائمهم

[illegible] والمجرمون او لو اخذ الابرياء بجريرة المجرمين وعومل الكل بالرأفة او نجوا من العذاب لهان الحال ولكن الامر على شد ذلك ولولا الرمس ان كشف [illegible] يحسو الى ازالتها لسبلتُ ستراً على ما رأيتُ وتركت هذه الفظائع محجوبة الى ما شاء الله فان لها اسوةً بغيرها مما يحتملهُ نوع الانسان من العذاب الهون في تلك البلاد من الجلد بالسياط حتى الموت وسمل العيون بالحديد المحمى وسلخ الجلد من الايدي ورشُّ الملح عليها وربطها بسيور من جلد البقر الطري، وتركها حتى تنقلص وتقطع اللحم فيفسد وتنقطع الايدي

وكم يموت جوعاً ومرضاً من الذين يقضى عليهم بالسجن . سجن الحكومة الكبير سيفي برباط مكشوف لا سقف لهُ يقي السجناء من شمس الصيف ومطر الشتاء . وسجون داخلية البلاد اسوأ منهُ حالاً لانها كهوف تحت الارض وكثيرون من السجناء يودون لو كانت لهم قبوراً . والاقامة في مراكش الآن تجعل المرء يحسب الموت ملاكاً سمويًّا يُبعث لانقاذ الناس من الشقاء والعذاب

وتوقف شدَّة الجور والعسف على الولاة فالوالي الظالم الغاشم لا تأخذهُ شفقة ولا يردعهُ عن الحيف حنان . ذهب قائد غازياً وامر برجل ان يجلد ثم لما عاد عن غزوته وجد الرجل في قيد الحياة فاغتاظ وامر بجلده ثانية ومضى الى الجامع يصلي فمات الرجل تحت الجلد . ورأى رجلاً آخر ذنبهُ الوحيد مصادقتهُ للاجانب فامر بهِ ان يوضع في بئر قائمًا ويقيَّد هكذا الى ان يموت . وكان ابو هذا القائد حاكماً ظالماً مثلهُ فاضطرَّ شعبهُ ان يصبوا عليهِ زيتاً و يحرقوهُ حيًّا لكي ينجو من ظلمهِ

اذا عصت قبيلة وابت ان تؤدي الجزية سارت الجنود لاخضاعها وقبضت على من يقع في يدها من رجالها وعادت بهم اسرى مثقلين بالاغلال وقد يموت ثلثهم او نصفهم في اثناء الطريق لشدة ما يقاسون من العذاب الهون . واذا كان القائد قد اخبر بعدد اسراهُ حزَّ رؤوس الموتى منهم وملَّحها وعاد بها حتى لايقال ان افلت احد منهم واذا اضاع رأساً منها فقد يحزُّ رأس واحد من الجند بدلاً منهُ

ثم ذكرت ان وكلاء الدول في طنجة رفعوا مذكرة الى سلطان مراكش وصفوا لهُ فيها حالة السجون ووجوب اصلاحها فنظر الى طلبهم وامر فاصلح بعضها حيث يسهل ان يرى الاجانب ما فعل . وان كثيرين من فضلاء الانكليز رجالاً ونساء اهتموا بمسألة السجون في مراكش اهتماماً شديداً وهم يبعثون النشرات الى الولاة يطلبون منهم الرفق بالعباد . ولا شبهة عندنا في ان اغراضهم حميدة لا يشوبها شيء من المصالح الذاتية ولكنها قد تصير اساساً "للتداخل"

الاجنبي وما يعرب سبيه . سبب ان كونتس ميث او سواها من النساء الشريفات ذوات المقام في البلاد الانكليزية أُهينت او اعتدى عليها سجّان او جنديّ او وال جهلاً منهُ او كرهاً وسبب ان ذلك تكرَّر مرارًا فما ينجي مراكش من الاساطيل الانكليزية وعلى مَ لا يصلح الناس فسادهم اذا اتخذهُ غيرهم سبيلاً عليهم

وزارت كونتس ميث سجن طنجة وقالت انهُ اصلح من غيرهِ من السجون لانهُ بمرأى من الاجانب ورأت هناك رجلاً جُلد الف جلدة لانهُ سبَّ الوالي. ثم رأت امرأة انتها تبكي وعلمت من امرها ان ابنها ورجلاً آخر اختصما فوُضعا في السجن وطلبت منها صدقة ترشي السجان بها ليطلق سبيل ابنها فأعطيت ريالاً ففتح الريال اقفال الحديد واطلق الابن ورفيقهُ . قالت الكونتس ولو اقتصر اطلاق الناس على مثل ذلك ولو كانت السجون خالية من الفظائع لهان الامر وسهل الخطب

ثم اشارت بانشاء اللجنة التي اشرنا اليها سابقًا حاسبة ان حكومة مراكش تصغي الى طلبها لانها تحسبها معضودة من دولها وارتأت ان تختار هذه اللجنة رجالاً مشهودًا لهم بالهمَّة والمروءة والعفة والدربة يطوفون في بلاد مراكش ويزورون سجونها ويوجهون انظار الولاة الى ما فيها من المساوىء الفاحشة ويتوسطون في الافراج عن الابرياء . ثم وعدت بان تدفع هي راتب واحد من هؤلاء الرجال . وهذا هو النصح الحميد النصح بالقلم والمال . فهل في هذا القطر مَن يفعل فعل هذه الاميرة الجليلة او مَن يلبي نداءها فيسعى في تخليص مراكش من عيب فاضح ومن بلية قد تقود الى بلايا

وسلطان مراكش الآن مولاي عبد العزيز بن السلطان حسن ولد في ٨ فبراير سنة ١٨٧٨ وخلف اباهُ في ٧ يونيو سنة ١٨٩٤ وحكمهُ مطلق ولهُ ستة وزراء يستشيرهم في شؤون بلادهِ اذا اراد والاَّ فلا شأن لهم الاَّ تنفيذ اوامرهِ

وقد اختلف المقدرون في عدد السكان فقال بعضهم انهم لا يزيدون على مليوني نفس وابلغهم البعض الآخر الى تسعة ملايين واربعمئة الف نفس . في ولاية فاس منهم ثلاثة ملايين ومئتا الف وفي ولاية مراكش ثلاثة ملايين وتسع مئة الف والباقون في بقية الولايات واكثر السكان من البربر . عاصمة البلاد مدينة فاس سكانها مئة واربعون الف نفس

والبلاد جبليَّة طيبة الهواء يصدر منها الصوف واللوز والفول والصمغ والشمع وجلود الماعز ويقال انها من اجود البلدان تربة واصلحها لزرع الحنطة ولو حسنت ادارتها ونشرت فيها وسائل العمران لكانت من اغنى ممالك الارض وامنعها